

سطحولوجيا النقد

فراس اوسكان

xwinpak@gmx.net

يهدف موضوع هذا المقال إلى معالجة نقطتين أساسيتين:

النقطة الأولى :

تناول { الوجه النقدي في دفاع جان دوست عن الشاعر أحمد الخاني } كما تبدى في المقال المنشور على موقع amude.com في تاريخ 2002\6\5 والمعنون بـ :

[النقد السطحولوجي] . والذي لم يكن رداً نقدياً _ بمعناه العلمي _ على مقال (هيببت بافي حلبجة) إلا بقدر كونه , دفاعاً مستميتاً عن الشاعر الخاني , وإظهاره كنموذج قياسي standard (المتقف الكردي الصادق)

النقطة الثانية :

محاولة للوصول إلى مقاربة معقولة عن السؤال الدائر حول طبيعة عن المعرفة التاريخية , المرتكزة أساساً على الطريقة التي ينظر بها الإنسان عن نفسه في موقف تاريخي و زمان معين .
بديهة سأحاول توضيح العلاقة الكائنة في الثالوث (جان دوست , الخاني , هيببت)

1_ جان دوست :

[كان له شرف نقل أفكار الخاني وشرح راعته (مم و زين) باللغة العربية] بما أن (اهتمامه بهذا المفكر يزيد يوماً أثر يوم) فمن الطبيعي (أن تلفت انتباهه) (المواضيع المتعلقة بهذا المفكر)
فجان دوست يرى في نفسه خير خلف مدافع عن خير سلف

2_ أحمد الخاني :

وفقاً لتصور جان دوست : (أحد أهم المفكرين المبدعين الأكراد على مدى تاريخهم) , ليس لديه عقدة العرابة التاريخية التي يعاني منها جمهور كبير من الأكراد , (متقف نحوي) (بنى فلسفة السؤال في تاريخ الأكراد) (شيخ ومولى) (يمتلك رؤى نبوية)

3_ هيببت :

كما يراه جان دوست , باعتباره يمثل أحد الكتاب عن الخاني غير جان دوست :
(يعانون من سوى فهمه {الخاني} ويحاولون قوليبته ووضع تحت مناظير نقدية مستوردة لا علاقة لها بالواقع الكردي ولا حتى باللغة الكردية) { نافخي بالونات }
(عبارات متخنة بالمصطلحات تدل ظاهرياً على ثقافة الكاتب) (كيف يحسب نفسه مثقفاً كردياً ويقول)
يبدو وكما أفهمنا جان دوست , أن هيببت لم يمتلك القدر الكافي { هيببة } بالشكل الذي يجعله قادراً على مواجهة العملاق { الخاني } [غوليفر وجد نفسه في جزيرة العمالقة] , فما كان له إلا أن يتحول إلى قزم ,
يجتو أمام قدمي العملاق { طالباً الرحمة و المغفرة }
التمظهر بالدفاع عن الماضي المقدس لدى شعب يحاولوا إيجاد دور فاعل له في الحاضر عبر هذا الماضي ثم المفارقة paradox الكائنة , في تناول الماضي كما هو كتحةفة من اللوفر لا يجب أن تمس أو تخضع للنقد ,
تفقدان دراسة الماضي صيغته المعرفية والفكرية و تضيفان عليها نمطاً من الأخلاقية Ethicaization ,
بحيث تبدو إحياءاً للتراث القديم , لكن شكلاً لا تعدو تطبيقاً للأخلاق على المعارف .
فجان دوست يرى العملاق الخاني فوق النقد الحديث لسببين :

الأول : (أن أحمد الخاني كان يجهل علم الأستمولوجيا ولم يسمع شيئاً عن سبر الأغوار النفسية , ولم يقرأ مقالات النص والتناص) لأنه (لا يستطيع عبور الزمن) الجهل ليس بحجة Ignorant is not argument , والانطلاق من فكرة أن خاني هو ماضيه يستحيل دراسته وفق شروط الحاضر , يعني إقالة Investigation في التاريخ ,

والحجز على العقل بقيود الماضي , ونزع الصفة التاريخية عن الإنسان بوصفه حديثة , وتجريده إلى كائن لحظي محض .

عندما أكتشف فرويد { عقدة أوديب } في مسرحية الملك أوديب لسوفوكليس , لم يعترض عليه الأدباء لأنه قام بفهم سوفوكليس وفق شروط عصره , فهل كان على فرويد أن يحجم عن دراسة سوفوكليس من منظور علم النفس , بحجة أن هذا الأخير يجهل الـ Psychology ؟.

هنا جان دوست يطلب من القارئ أن يكتشف (الخاني) كما هو في عصره و وأن يفهمه على النحو الذي كان يفهم الخاني نفسه كان يفهم الخاني نفسه , بمعنى يقود القارئ إلى كهف الماضي بحثاً عن المستقبل , بشكل يفرضي على الانخلاع عن الراهن , فجان دوست ضد التاريخية وضد الراهنية بأن معاً .
ليس هذا فحسب , بل يجعل من نفسه تناقضاً مجسداً في رجل , فإذا كان الخاني لا يستطيع أن يعبر الزمن , فكيف استطاع هو أن يعبر الزمن عكسياً ويعيش مع الخاني ويعرف أن (الخاني كان بانتظاره موازيين للنقد , بالطبع هو يعرفها ويحاول تجنب الوقوع في المطبات ليسلم من النقد) , ما هي هذه الموازيين ؟ وكيف استطاع جان دوست أن يعرف (خاني حاول جاهداً) وأنه (لم يمتلك عقدة العرافة التاريخية) و (يعتمد على الحس والرهافة الشعرية) .

أمور غيبية , من اختصاص الكهنة والعرافين , وربما يكون جان دوست هو الصديق الروحي لـ (خاني) , ما عليه إلا إرافة دم الأضحية (هيبب) و (أغري) على معبد دلفي كردي , حتى يتمكن من استحضار روح الخاني من مملكة العالم السفلي , لنخبره بما كنا نحن به جاهلين فهو (يعلم ما لا تعلمون) .
وربما يعتمد على (الحس الداخلي و الرهافة الشعرية) وغيرها من السحرية والفتيشية .
الثاني : (علم الجمال الكلاسيكي يختلف عن علم الجمال المعاصر) .
حيلة جديدة للمثالية , تهدف لابعاد الخاني عن دائرة النقد , ولا تتقدم بالقارئ خطوة إلى الأمام قيد أغلة (الكلاسيكي يختلف عن المعاصر) و (الماضي يختلف عن المعاصر) بقي أن نضيف (هيبب يختلف عن جان دوست) .

المسألية (نمط التساؤل) في المعرفة التاريخية , لا تتمكن في الاختلاف فحسب , وإنما تجاوز هذه الملاحظة الأولية إلى التساؤل عن تأثير القديم في نشوء الحديث ؟ وتأثير الحديث في القديم , يجعله هذا الأخير يمتلك أثراً فاعلاً to put in action , أي أن له مدلول في الحاضر ؟

القديم يحتوي الحديث بشكل الجنيني Fetal , مثلاً الحقوق البرجوازية الحديث متضمنة في القانون الروماني القديم , والمسرح الأوربي متضمن في أعياد أدونيس القديمة , والكثير من المفاهيم الأساسية في السياسة المعاصرة (المواطن , الديمقراطية) موجودة في المدن الإغريقية القديمة .

وبالمقابل فإن ما نعرفه عن (القديم) (الخاني) بالضبط هو الـ نص , دله أثر , هذا الأثر يختلف باختلاف العصور , أي أن له تاريخاً و أثراً , والمؤول المعاصر يرى فيه عنصراً فاعلاً بحيث أن (الجيل الجديد يمكنه إحلال المعرفة والإدراك , محل آمال الجيل القديم ومحازنه ورموزه غير المحدد) .

والتأويل يرتكز أساساً على اللغة التي هي دلالة على كينونة الجماعة وتعكس بنية ذهنية ثقافية في موقف تاريخي معين [هنا لست بصدد توضيح آليات اللغة في تطوير بنية النص مع تطور التاريخي وإنما سأطبق ما فهمته على نص الخاني , بشكل سيسمح للقارئ ما أبغيه دون مصطلحات مثخنة] .

على ضوء هذه الأمور , الخاني يمتلك نزعة التحديث Modernizat بمعناه المعاصر , عندما لا يفصل في نصه (مم وزين) الاجتماعي (الحب) عن السياسي (السلطة) .

فالاتجتماعية (زواج سيتي و تاج الدين) يخدم السياسي (دعم سلطة الأمير زين الدين في الإمارة , لما عرف به تاج الدين , بكو و عارف بشدة البأس) .

وبالمقابل فإن السياسي [خوف الأمير من أن يعلن تاج الدين الإمارة لنفسه ومن أبناءه من بعده , حيث سيزداد نفوذه في البلاط بتحقيق زواج مم وزين] يتداخل بصورة مباشرة في الاجتماعي (قضية الزواج) .

تساؤل الخاني عن سبب بقاء الأكراد دون دولة ؟ بداية لتشكّل مفهوم الدولة الذي يختلف عن مفهوم السلطة وإجاباته عن تلك المسألة من منظورين : السياسي (ملك يليق له العرش) والثقافي (باهتمام الحكام بالبضاعة الأدبية) ,

ما زالت ماثلة في أذهان الناس إلى اليوم , وإن كان التصور وفق المنظور الأول (الشخصية الكاريزمية) في حل المسألة الكردية طاعياً على الثاني .

إن عدم المحاولة من أجل إعطاء جواب صحيح عن تلك المسألة , يعكس الطابع السرمدى _ اللاتاريخي للمجتمع الكردي :

سياسياً : الصراع بين مختلف الإمارات في عهد الخاني , ينعكس إلى صراع بين مختلف الإيديولوجيات الكردية المعاصرة .

كما أن محاولة تسييس الواقع الكردي (بمعنى أنه يجب على الكردي أن يكون مسيساً) , بدلاً من وقمنة السياسة , يمثّل تسييس زين الدين لقضية الحب .

ثقافياً : التخلف عن الثقافة في عهد الخاني : [ما العمل والبضاعة في القمة الكساد , ولا أحد يشتري ما لدينا من قماش] ينعكس في الصورة تخلف ثقافي حاضر عند الأكراد .

موضوع الثقافة الكردية أو الـ Intelligensia الكردية ما زال مثار جدل , لكن يبدو من فهمنا لنص الخاني أن الأكراد في عهده كانوا متخلفين جداً , بحيث لو كان سعر الحكمة فلساً و الشعر فردة حذاء لما اشتراه الأكراد !؟

هيبت يقول : [لماذا هذا التصور على الأكراد , من جانب أحمد خاني نفسه ومن كان لديه القابلية للنطق يمثل هذا الكلام] .

هيبت لا يستطيع أن يتصور نفسه شيئاً آخر سوى أنه كردي , لذلك لا يجد (القابلية لينطق) أن الأكراد كانوا متخلفين , بل أكثر من ذلك يتصور أن الكرد (شعب مثقف منذ الأزل) .

فإذا كان (الاستبطان القصصي لدى خاني طبعاً , يجنح نحو الضحالة والموضوعية وعدم تكثيف الأحداث القصصية , مردها افتقار الحياكة القصصية إلى الأدوات الموضوعية لذلك أهتم بالرد الكلامي والطرح النظري) فأين هي الثقافة الكردية المزعومة . ؟

إذا كان بطراس الأكبر استطاع الانتصار على البربرية الروسية بالبربرية , فإن هيبت بذل جهداً من أجل الرد على الكلام الردي والطرح النظري والضحالة الموضوعية لدى خاني وذلك بكلام الردي و الطرح النظري والضحالة الموضوعية , مردها افتقار النقد الأدبي إلى الأدوات العلمية .

فهو ينطلق من فكرة أن القصة الجيدة تتميز بتكثيف الأحداث والحوار Dialogue , ويطلب من مادة النص الذي بين يديه (مم و زين) أن تتطابق مع المفهوم ؟ كان بإمكانه أن يطلب الخاني بإنشاء قصيدة عن حلبة و سيكون هذا ما يحتاجه المجتمع الكردي!!.....

جان دوست أيضاً , يحاول أن يثبت أن الشعب الكردي كان مثقفاً , وما قام به الخاني رد على تصورات الشعوب الأخرى , ويرد التصور بالتصور والمثالية في الفهم تتبدى في صورتها المثالية . يحاول جان دوست أن يشخص الثقافة الكردية في الخاني ويموضعها في كتب الخاني , وهذا انعكاس لـ داء شرقي قديم .

تاريخياً : الأكراد لا يرون في نص (مم و زين) إلا على أنه قصة مكر وخديعة ومؤامرة قام بها (بكو عوان) للحيلولة دون زواج (مم و زين) .

هذا الأمر يجد له انعكاساً في الطريقة (تصور الأكراد عن التاريخ) التي يرى بها الأكراد أنفسهم في التاريخ على أنه مؤامرة محاكاة ضدهم و انتقام منهم , وبدوره هذا التصور تمخص عنه(العقل البوليسي الكردي) الذي ليس عاجزاً عن اختلاق مئة عدو متخيل بحجة أن هذا العدو(مستورد و لا علاقة له بالواقع الكردي أو التاريخ الكردي أو حتى اللغة الكردية) .

فإذا كان جان دوست لا يرى في النقد المعاصر(المستورد) علاقة مع الواقع الكردي , وبالوقت نفسه لا يوضح للفارئ ولو بمثال توضيحي عن المعايير التي يتوجب على النقد أن يحققها حتى يكون كردياً ؟ ف (لماذا كل هذه الضجة ؟ ماذا تريد يا سيدي . ؟)

إن محاولة فهم الخاني فهماً معاصراً وتأويله ضمن شرط , (في النص لا يهم قائل النص [لماضي] وإنما المتلقون للنص [الحاضر]) سيزيد التفهم الذاتي للشعب الكردي تجاه تاريخه , ويجعله أكثر إنتاجية .

وذلك وضعهم وجه لوجه أمام التاريخ ؟ ومحاولة إثارة التساؤل عما يكونون..؟

لكن جان دوست يضع الفارئ, عند المواجهة , أمام احتمالين :

الأول : من أجل الفهم الصحيح للماضي يجب العيش في شروط مماثلة , وهذا يفرضي إلى الأصولية .

الثاني : أن استحالة الشرط السابق , يؤدي إلى القطيعة مع كل هو ماض وتاريخي لعدم امتلاكه Value قيمة في الحاضر , ويفقد النص أثره الفاعل ويتحول إلى شكل مجرد يستحق البكاء والوقوف على أطلاله المناسبات .

وهنا يعلن جان دوست موت النص الأدبي وقيمه الجمالية بموت قائل النص :

[إن نسيج مم و زين لهو نسيج كردي تتخلله خيوط غريبة تزيد جمالاً بمقاييس النقد الكلاسيكي والأجواء الأدبية في عصر الشاعر] . فلماذا يدافع عن ميت , ربما لأن الميت يمسك بتلابيب الحي . ؟

يبدو أنه (يحاول جاهداً) الدفاع عن الخاني لكنه يقع في مطب النظرة الأحادية الجانب وبالتالي (لا يستطيع أن يسلم من النقد)

[فإذا لم يكن المطلوب من الخاني أن يعرف من هم المدييون ولا من هي والدة رستم أو زوجة كاوا حداد]

(فلن يكون المطلوب من جان دوست أن يعرف من هم الأكراد ولما هي نصوص الخاني أو المقاييس الكلاسيكية)

[وإذا لم يكون مطلوباً من الخاني إيجاد بدائل كردية للمصطلحات الفلسفية والدينية والتصوف التي امحمها في ثنايا مم و زين]

(فلن يكون مطلوب من هيبت إيجاد بدائل كردية للمصطلحات الفلسفية المستوردة أو الاستمولوجيا التي أمحمها في ثنايا المقال)

الخلاصة: جان دوست يطلب من الفارئ لنص الخاني أن يكون مهندساً رؤياً تاريخياً على صورة الله ودعوة لهذه , ضرب من الغيبية الفارقة في الميتافيزيقيا , بل أكثر من ذلك وقوع في سطحولوجيا النقد .